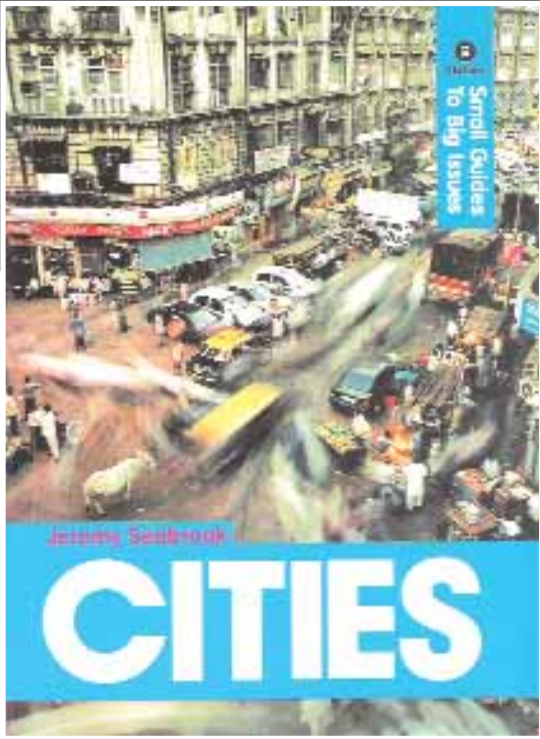


المدن .. هل تحول العالم برمته إلى مستوطنات حضرية على حساب الريف؟



غلاف كتاب المدن لجرمي سيبروك

السكان غير الإعتيادية، ولكنها وبالرغم من ذلك فإنه بمقدورها النزوع نحو إيجاد حلول لمشكلاتهم. فالكثير من الأمثلة تثبت أنه حيث تبرز قوة الإرادة في غياب عجز السلطة عن التدخل لمعالجة مشكلات المدينة، فضلا عن طرح تخطيط مسبق للمدينة أصلا، ينحو السكان نحو تحسين ظروفهم بما يسمح به الحال والظروف وبخاصة في مجالات الإسكان والتوطين الإجتماعي. فالكثير من المدن في العالم الثالث تفقر لميزانيات الإسكانات، ولكن ففي حالة إتاحة المجال للسكان للبحث عن حلول طبيعية لإيجاد مأوى لهم غالبا ما تتوفر الحلول العملية التي تبرز فيها البساطة والجمال والتوفير الإقتصادي العملي والناجع.

مشكلات المدينة - مركز المدينة
الطارد للحياة الإجتماعية:

المدينة كانت وما تزال مكانا أهلا مملوءا بالحياة البشرية والقاطنين حيث تدور التفاعلات الإجتماعية والحياتية المعيشية للبشر حيث تمارس العبادة والعمل والقضاء ومختلف أنماط الحياة بحيث غدت المدن مكانا لصناعة المال أيضا. وفي السنين الأخيرة أضحت المدينة موئلا للرأسمالية وتجاهياتها واهتماماتها لصناعة المال وتحقيق المصالح المادية مما بات يتضارب ومصالح القاطنين بها في أحيان عديدة، فالمكاتب وناطحات السحاب العالية حلت محل الإسكانات في وسط المدينة وفي أماكن استراتيجية منها أصبحت تقاس قيمتها بمسطرة الرأسمالية والمنفعة المالية، وكذا الحال في مواقع الاسواق وأماكن العبادة التي أفسحت الطريق للمكاتب والبنوك لتحتل مواقع مهمة بالمدينة.

ومن هنا ففي الكثير من المدن في العالم بدأ مركز المدينة الحضري وقلبها التاريخي يفقد أهميته كذاكرة مهمة للمدينة وتاريخها وعراقتها في مقابل مجتمعات معاصرة وحديثة لا تعكس ذاكرة وحس المكان أو الطابع المعماري العريق والأصيل. كل ذلك تمت التضحية به في سبيل الرأسمالية والمصلحة المادية التي اجتاحت المدينة ومحركي الإقتصاد بها. فالأبنية النمطية حلت محل التقليدية التي ترعرت بها الحرف اليدوية والتقليدية، فضلا عن تغير شبكات المواصلات بها فالشوارع العريضة للسيارات حلت محل طرقها التقليدية التي صممت لعربات الخيول. وبذا غدت المدينة ذات الأبراج العالية مكانا غير مضياف وطاردة للسكن وبحيث أصبحت مراكز المدن الحضرية الحديثة أماكن تلعب فيها الرياح بعد ساعات الدوام الرسمية حين تقفل المكاتب أبوابها.

فمركز المدينة هو قلبها النابض وهكذا ينبغي، برغم أنه قد لا يسكنها الغالبية من السكان او يحتوي على مرافق سكنية، لكنه مركز الفعاليات بها والأسواق والمشاكل والمقاهي والمسارح والتي تستمر بتوفير طوقس فعاليتها الإجتماعية بين فئات المستخدمين المتنوعة. فمراكز المدن هي الأوعية التي تمتزج بها أنشطة البشر وعبقريات إبداعاتهم. كما يجب أن تكون مركز التفاعلات الثقافية المختلفة بين الحضارات الأخرى حيث يمكن لمن ينتمون لثقافات أخرى من القدوم والإمتزاج والإنخراط بفعاليتها والتعلم. وهذا التمازج هو من الأهمية بمكان في عالم متسارع التطورات التكنولوجية وعولمة الإتصالات.

ومن الجدير ملاحظة أن التعددية الثقافية الحضرية قد تتسبب أحيانا في تصادمات وتضادات بين الأفراد من الحضارات المختلفة لكنها أيضا تفسح المجال للتعددية والحوار والتسامح. ومن المهم لمستقبل المدينة عدم "خنق" أو تقييد هذه التعددية بل تشجيعها على الدوام. فمدن اليوم العظيمة هي مدن عالمية لما بها من تعددية ثقافية بإيجابياتها وسلبياتها، فهي نماذج عملية للكيفية التي يمكن للأفراد بها من التعلم كيف يمكن التعايش مع غيرهم في عالم مطرد التغير فيما يتعلق بالإعتماد على الذات. وللحديث بقية. ■

باحث وأكاديمي - لندن
sayedw03@yahoo.co.uk

■ الحواضر العالمية منارات تعكس إشعاعات الحضارة والثقافة التي تتبنى عليها معالم الفن والأدب والفكر في الحاضر والمستقبل

■ التمييز بين مفهوم «المدينة» في مقابل 'القرية' بات يزداد صعوبة حيث غزت الصناعة والتقنية الحديثة كل المنعطفات والجوانب في هذا العالم الصغير



د. وليد أحمد السيد



أحياء عشوائية في قلب مدينة بومباي بالهند

والمحلية لديها القدرة على تكوين منظومتها الإجتماعية وتكوين فئاتها المجتمعية المصغرة وجذبا ولا يمكن تحقيق ذلك اصطناعيا بل بمنهجية وآلية طبيعية.

وبمرور الوقت تبدو الحاجة أكثر فأكثر، نظرا لعوامل الزيادة السكانية الطبيعية المضطربة أو نتيجة الهجرات القسرية وغيرها، لتوسع المدن. ومشكلة توسع المدن هي مشكل أزلية أبدية عانت منها المدينة على مر العصور - وبخاصة في مدن القلاع في العصور الوسطى التي كانت الزيادة السكانية ودوافع التوسع تتحدى الأسوار المنيعة التي كانت تحصن خلفها. وهي مشكلة عانت منها المدينة العربية التقليدية التي وصفها بعض الدراسات الحديثة بالمتدعة "بالإسلامية" ووضعها ضمن نمطية مقولبة تدحضها الكثير من الأطروحات التي تستند للمنطق ومنها أطروحة الباحثة في هذا المضمار (جانيت أبو لغد) - والتي سنعرض لها في مساحة قادمة. فكان من أبرز أفتاتها كميثالاتها من مدن العصور الوسطى المسورة هي مشكلة التمدد والزحف العشوائي الذي يصطدم بحواجز الأسوار أو المحيط الطبيعي.

ولكن المدينة والقائمون عليها في العصر الحديث، وبالذات في المدن الغربية الثرية في العالم الصناعي، كانوا أكثر ذكاء في التخطيط المسبق ودراسة احتياجات المدينة بناء على منظومة مرتبطة بخطة "مستقبلية لمجموعات من السنين" تعالج مشكلات النقل والنمو الديموغرافي والتوزيع الوظيفي-الغيزيائي وتوزيعات المجموعات الإجتماعية في المدينة وغيرها مما يجعل لها ديمومة أكثر من مدينة "اللاتخطيط" النامية عشوائيا كجزئيات ممتدة بكافة الإتجاهات. ومن اللافت أنه وبالرغم من هذه العشوائية التي قامت عليها مدن الماضي وبخاصة في العالم الثالث، إلا أنه يصعب تصديق أن هناك دراسات تجتهد في البحث في وجود "أسس" تخطيطية لهذا النمو العشوائي الفاضح!! فضلا عن تقديمها كأسس ناجعة لمعالجة المدينة الحديثة بمتغيراتها المعاصرة!!!

وبالرغم من تدهور أوضاع المدن في العالم الثالث إلا أن بعض الدراسات التي تجريها بعض المؤسسات العالمية المتخصصة في متعلقات الحضرية والنمو تلاحظ أن مدن العالم الثالث بشكل خاص تظهر في مواجهة ضغوطات

■ لا أحد يعرف فعلا المرحلة الدقيقة والنقطة الحرجة التي لا رجعة بعدها عندما يتحول العالم إلى مستوطنات "حضرية" ويصبح حضريا تماما، في مقابل الريف الأخذ بالتناقص يوما بعد يوم بفعل الهجرات المطردة التي تتركسها أضواء المدينة المعاصرة. وهل هذه المرحلة أو نقطة اللارجعة قد حصلت أصلا؟ تساؤلات يطرحها الكثيرون من الباحثين والمنظرين في شؤون المدينة الحديثة وعلم الإجتماع الحضري، مثل الباحث (Jeremy Seabrook) في كتابه (Cities) الصادر حديثا عن دار (Pluto) بلندن. وقد عبر عن شيء من مرحلة الغموض هذه والمستقبل المجهول الذي تسير نحو المدينة الحديثة والعالم المؤرخ أرنولد توينبي (Arnold Toynbee) في كتاب مدن المصير (Cities of Destiny) حين قال: "نحن ننحو باتجاه المجهول، فلا نعرف كيف سيعبر الإنسان عن نفسه، لكن هذا ليس سببا كي لا نبني إطارا حوله، وإلا اتجهت البشرية نحو اللاحكم والعشوائية في التركيب الإجتماعي". مشيرا لأهمية رعاية المنظومتين الإجتماعية والفيزيائية وترابطهما في المستوطنات الحضرية والتي تجسد المدينة أحد مظاهرها أو قمة الهرم البنائي للحضارات الإنسانية وتعكس نجاحها أو فشلها.

فما هو حال المدينة المعاصرة وما هي أبرز الجوانب الإيجابية والسلبية فيها في العالمين المتحضر والثالث؟ سؤال كبير تجيب عنه مراجعات متباعدة في هذه المساحة ومساحات قادمة. ونبدأ بظاهرة الحضرية والتي وضعت البشرية على سلم المدنية في مقابل الترحال والبداءة، ونطرح بعض الأفكار الأولية المتعلقة بأهمية المدينة كحاضنة للحضارة وما تعنيه المدينة كذاكرة ومحرك اقتصادي للأمة.

المدينة مقابل الترحال والبداءة

شكلت نشأة المدن تاريخيا نقلة مهمة في حياة البشرية وانتقالها من مرحلة الترحال المستمر والبداءة لمرحلة الحضرية. واحتياج الإنسان للمدينة نبع من حاجته للمكان المستقر الذي يمكنه من العمل والزراعة والعيش وممارسة نشاطاته المختلفة التي تسمو به عن سائر مخلوقات فضلا عن حاجته لمكان آمن وملجأ يرتاح إليه. فالتجمع الحضري هو المدينة بشكلها الحسي المتمثل بالطوب والحجر، وهي نقطة البداية للمدينة التي قطعت شوطها تاريخيا تجاه الحاضر والمستقبل وتفرعت عن تجمعاتها البدائية مجتمعات القرية. وعلى طول هذا الشوط الكبير للمدينة عبر التاريخ كان تصميم المباني هو المحددات الجانبية لدرجتها التاريخية، كما أن شبكات تخطيط شوارعها وأماكنها العامة كلها تشكل الذاكرة المدنية التي تحفر في عقل ووجدان ساكنيها. وتتغير المدن تدريجيا بمرور الوقت، لكن أنماط المباني بها من مساجد وكاتدرانيات ومدارس ومعابد ومتاحف ومسارح تحتفظ بقوتها المغناطيسية لجذب القاطنين عبر الأجيال.

التجمعات الحضرية تحدد معالم المدن أكثر من أي شيء آخر، فمنجزاتها المعمارية من متاحف ومسارح وشواهد عمرانية تقدم محتوى ثقافيا وحضاريا يحوي المنجزات الثقافية للأمة والتي تتناقلها الأجيال عبر العصور لتقاس عليها ومن خلالها التطورات المعاصرة. ومعظم الحواضر العالمية هي أيضا منارات علم تعكس إشعاعات الحضارة والثقافة والتي تتبنى عليها معالم الفن والأدب والفكر العالمي في الحاضر والمستقبل.

هجرة مطردة باتجاه الحضرية:

وفي الستين عاما الأخيرة منذ الخمسينيات فقد شهد العالم المعاصر زيادة مضطربة في أعداد المهاجرين من الريف إلى المدينة. في العام ١٩٥٠ لم يتجاوز عدد سكان المدن في العالم النامي أكثر من ١٤٪، فيما وصل هذا العدد مع بداية القرن الحالي إلى ٤٠٪ ما يشير لعوامل الجذب المدنية وعوامل الطرد الريفية. وبالرغم من تمييز الكثير من الباحثين لمفهوم "المدينة" في مقابل "القرية" إلا أن هذا التمييز بات صعبا ويزيد صعوبة يوما بعد يوم حيث غزت